مركز دراسات أرض فلسطين

للتنمية و الانتماء

إعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية بين الامكانية التاريخية و الواقعية

د. عابد الزريعي

حقوق الطبع و النشر محفوظة – مركز دراسات ارض فلسطين للتنمية و الانتماء

مدخل

تستند اطروحة اعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية الى مفهوم الفرصة السياسية المتمثل في اشتغال العلاقة بين الحركات الاجتماعية والسياسية وبيئتها المحيطة. وبما تفرضه على القوى السياسية من ضرورة البحث عن اليات التكيف الايجابي مع الواقع وتحويل تهديداته الى فرص سانحة،بكل ما يستدعيه ذلك من صقل للوعي وتجديد للأدوات وتطوير للفعل الضامن لتحقيق الاهداف التي تصبو اليها.

ويعبر مفهوم الحركة الوطنية الفلسطينية عن الصيغة العامة لنضال الشعب الفلسطيني ضد الامبريالية والصهيونية أولا في جانبها الثابت والمستمر كنتيجة لاستمرار وزيادة وتيرة العدوان الامبريالي الصهيوني كعامل موضوعي، وصلابة الروح الكفاحية للشعب الفلسطيني واستعداده العالي للتضحية من اجل نيل حقوقه الوطنية كعامل ذاتي. وثانيا في جانبها المتغير والمتمثل في تطور وتبدل اشكال النضال وأدواته وبناه التنظيمية القائدة ، وما تستدعيه من تغيير وبلورة وإعادة بناء على ضوء المتغيرات والظروف المحيطة.

ان عملية اعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية تتركز في مستوى الجانب المتغير الذي يتجسد بشكل اساس في البنى التنظيمية القائدة التي تمر في اللحظة الراهنة بحالة من الاجهاد والجمود التي تعيق القدرة على التطور والمواكبة والتأثير الفاعل والتكيف مع جملة المتغيرات والتحديات، اضافة الى اتساع الهوة بين المتغير والثابت في بعديه الموضوعي والذاتي. وتعني عملية اعادة البناء في جوهرها المسائلة العميقة للمفاصل الأربعة الاتية :

1 ـ مفصل الوعي : تجديد الوعي المقاوم لفهم متغيرات البيئة الوطنية والإقليمية والدولية.

2 ـ مفصل الاداة : تجديد الادوات التنظيمية بما يتوافق ومستوى الوعي بتلك المتغيرات.

3 . مفصل الفعل : تجديد الفعل المقاوم وتطويره بما يتفق ومستوى الوعي والأداة.

4 ـ مفصل الهدف: التشبث بالهدف الرئيس للفعل والذي تنتظم من حوله بقية الاهداف الجزئية.

حقوق الطبع و النشر محفوظة – مركز دراسات ارض فلسطين للتنمية و الانتماء

وعلى ضوء هذه المفاصل الاربعة سنحاول تقديم تصورنا لإعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية ضمن العناوين الثلاثة الاتية:

1 ـ نموذج للتجربة التاريخية للحركة الوطنية الفلسطينية في اعادة البناء 2 ـ الحركة الوطنية الفلسطينية وتهديدات اللحظة الراهنة 3 ـ اعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية كآلية لتحويل التهديدات الى فرص.

أولا : التجربة التاريخية للحركة الوطنية الفلسطينية في اعادة البناء

شكلت ثورة 1936 ـ 1939 نموذجا حيا لإعادة بناء الحركة الوطنية في لحظة تاريخية فاصلة ، تميزت بعدم قدرة اغلب البنى التنظيمية القائمة آنذاك على التكيف والتفاعل الايجابي مع البيئة المحيطة ، الامر الذي قاد الى تلاشي بعضها وميلاد قوى جديدة حية وفاعلة وفي مقدمتها حركة الشيخ عزالدين القسام التي استطاعت ان تقدم اجاباتها الخلاقة على اسئلة مفاصل التجديد الاربعة كما يلي:

أولا : مفصل الوعي :

حيث تم التركيز على ثلاثة قضايا ناظمة للوعي الجماهيري والشعبي هي: 1 ـ تحديد العدو الرئيسي في الاحتلال البريطاني 2. ـ وعي وضبط العلاقة بين القومي والوطني مستفيدة في ذلك من تجربة المؤتمرات القومية 3 ـ تعميق الوحدة الوطنية ونبذ النزعات الطائفية مستلهمة في ذلك العنصر الايجابي في تجربة الجمعيات المسيحية الاسلامية ـ

ثانيا : مفصل الاداة :

1 ـ ظهور حركة القسام من خارج البنى التنظيمية القائمة. والتي مثلت استجابة خلاقة للعلاقة بين القومي والديني والوطني ،وبرهنت على ان الشعب بمختلف تشكيلاته الاجتماعية من عمال وفلاحين وبرجوازية صاعدة قادر على اخذ زمام المبادرة من القوى الاقطاعية.

حقوق الطبع و النشر محفوظة – مركز دراسات ارض فلسطين للتنمية و الانتماء

2 ـ التلاشي التدريجي للبنى التنظيمية التي لم تستطع الاستجابة لتحديات اللحظة التاريخية لأسباب تعود الى نوعية قيادتها وبرامجها ووسائلها ووعيها بالعدو الرئيسي والثانوي (المؤتمرات القومية ـ الجمعيات الاسلامية المسيحية ـ واحزاب الثلاثينات التي تجاوزت الثلاثين حزبا ولكنها لم تستطع النهوض بالنضال الفلسطيني نتيجة لتناحرها وعدم وعيها بالوحدة الوطنية وافتقادها للفاعلية النضالية. فلم تلبث وتلاشت ولكن بقي منها الارث الايجابي وهو ديناميكية الشعب الفلسطيني وقدرته الفائقة على التنظم.

ثالثا : ـ مفصل الفعل :

تجاوز الاشكال النضالية المتبعة من قبل القوى السياسية (العرائض والدعاوى والتظلم في مواجهة عدو استعماري ـ استيطاني) واعتماد الكفاح المسلح ضد العدوين الصهيوني والبريطاني.

رابعا ـ مفصل الهدف :

رفع شعار الاستقلال التام كهدف رئيس والتعامل مع الاهداف الجزئية (الغاء وعد بلفور ـ وقف الهجرة) من منظور الهدف الرئيس وليس العكس. لذلك اندثرت عشرات القوى والفصائل التي حصرت مطالب الشعب الفلسطيني في قضايا جزئية بعيدا عن الهدف الرئيس.

ثانيا: الحركة الوطنية الفلسطينية وتهديدات اللحظة الراهنة.

تمثل ملامح البيئة الفلسطينية الراهنة التي تشكلت على أرضية اتفاق أوسلو عامل ازمة تمعن في خنق حاضر الشعب الفلسطيني وتهدد مستقبله . ويزيد من عمق التهديد كون الادوات التنظيمية القائدة باتت شبه عاجزة عن السيطرة على عوامله وتحويلها الى فرصة بالمعنى السياسي والاستراتيجي ؛ نتيجة لترددها في تقديم اجابة حاسمة حول الموقف من اتفاق اوسلو بوصفه جوهر المشكلة، والذي يعمل كأداة تآكل وتفكيك لحركة التحرر الفلسطينية على كافة

المستويات السياسية والتنظيمية والاجتماعية. لقد ظهرت الاعراض السلبية للتهديدات بشكل واضح على المفاصل الاربعة الاساسية :

أولا : . مفصل الوعي :

تتمثل عناصر التهديد على مستوى الوعي في جملة من مناحي التفكير الاجتماعي والسياسي التي باتت تنتشر في اوساط المجتمع الفلسطيني وبشكل متناقض مع طبيعة المشروع الوطني الفلسطيني ، والتي يمكن رصدها فيما يلي:

1 ـ بات المجتمع الفلسطيني مكشوفا امام الترويج لليبرالية السياسية المفتقدة للخطاب التحرري والبعيدة عن الظروف الموضوعية للشعب الفلسطيني كنتيجة لتفشي ظاهرة المنظمات غير الحكومية.

2 ـ اتساع ظاهرة الانتماءات الجهوية والعشائرية والعائلية على حساب الاهتمام ببناء مقومات الشخصية والهوية الوطنية الجامعة.

3 ـ تفشي ثقافة العيش على المساعدات المستندة الى نمط الاقتصاد الريعي الذي تكرس بفعل انفتاح بوابات العواصم الغربية وتدفق "المساعدات" التي تشكل من "75–85% من ميزانية السلطة الفلسطينية.

4 ـ الاطمئنان لثقافة التعايش مع التناقض الذاتي، فالذين ناهضوا اتفاق أوسلو التحقوا بأهم تراكيب السلطة التي انبثقت عنه وأجهزتها.

5 ـ التكيف مع ثقافة التطبيع ونقل الوعي بالصراع مع العدو إلى مستوى الخلاف مع الآخر.

ثانيا ـ مفصل التنظيم :

وتتبدى في مجموعة من المظاهر التنظيمية السلبية التي تطال البنى الكبرى الجامعة " منظمة التحرير " او الصغرى " التنظيمات والقوى الفلسطينية "، وتتلخص هذه المظاهر فيما يلي:

1 ـ تهميش دور منظمة التحرير وهيكلها وبرنامجها ودورها لصالح مؤسسات سلطة أوسلو والتي تنحصر تمثيليتها في الضفة والقطاع.

2 ـ تفشي ظاهرة التنظيم الاداري والفصيل ـ المشروع الذي يفتقد إلى أي وزن أو دور في الساحة الفلسطينية لكنه يستخدم كأداة لإضفاء المشروعية على أي قرار سياسي يمكن أن يتم اتخاذه. وارتباط ذلك بتحول التنظيم السياسي الى حلقة وسيطة بين العائلية والحزبية.

3 ـ تعاظم قوى الإسلام السياسي "حماس والجهاد وحزب التحرير" بما يرقى إلى نصف الخارطة السياسية المنظمة، حيث حصلت حماس على 44% من الأصوات وفتح على 42% في انتخابات 2006،

4 ـ تقهقر القوى اليسارية إلى نحو 7%.ونمو ظاهرة المنظمات غير الحكومية التي توظف حوالي 9% من قوة العمل غالبيتهم ينتمون للفئات الوسطى.

5 ـ تعمق ظاهرة الانقسام في بنية الحركة الوطنية الفلسطيني التي باتت تعيش من حيث المستوى انقساما شاملا له تعبيراته الجغرافية والديمغرافية والإدارية والايديولجية والسياسية وحتى الاقتصادية حيث بات لكل طرف مؤسساته الاقتصادية وسبل تمويله ومرجعياته المحاسبية وقوانينه الضريبية.

6 ـ تراجع دور المنظمات الشعبية الفلسطينية بما يعنيه ذلك من تراجع عملية التعبئة على المستوى الشعبي والجماهيري.

ثالثا ـ مفصل الفعل :

ويتلخص في اشكال الممارسة النضالية ضد العدو الصهيوني وتعبئة الجماهير الفلسطينية لآخذ دورها الفاعل في هذا النضال ويتبدى التهديد في هذا الجانب في مسألتين:

1 ـ التخلي عن التعبئة الجماهيرية الشاملة من خلال عدم الالتفات الى دور الشتات الفلسطيني ، وتهميش الجماهير الفلسطينية في الأراضي المحتلة عام 1948 ، وعزلهم سياسيا عن الجماهير الفلسطينية في الضفة والقطاع.

حقوق الطبع و النشر محفوظة – مركز دراسات ارض فلسطين للتنمية و الانتماء

2 ـ عدم الاتفاق والاختلاف الحاد على الاشكال النضالية المباشرة (الكفاح المسلح ـ المقاومة الشعبية ـ المفاوضات ... الخ).

رابعا ـ مفصل الهدف :

يعيش المشروع الفلسطيني حالة انتقال من ارضية النضال الوطني والأهداف الكبرى الى ارضية الخضوع والمساومة على الحقوق التاريخية في ظل تمسك العدو الصهيوني بمواقفه المتنكرة للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني. وفي ظل عدم وضوح الهدف والترويج لحلول الدولة الفلسطينية الموجودة في جسد السلطة الفلسطينية بوزرائها ومجلسها التشريعي وإداراتها، وذلك كنتيجة لعملية تحويل مبرمجة للنضال الفلسطيني لرأس مال رمزي متحالف مع منظمات العولمة المالية وصناديق الدول المانحة. بما ترتب على ذلك من تراجع تدريجي عن التمسك بحق العودة والاستعداد للانسجام والتكيف مع الاعتراف بالعدو الصهيوني.

ثالثا: اعادة البناء كآلية تحويل التهديدات الى فرص

تشكل إعادة بناء الحركة الوطنية وتجديد المشروع الوطني الفلسطيني مدخلا ضروريا وممرا اجباريا لتجديد التمسك بالأهداف الوطنية التاريخية بديلاً لتنازلات أوسلو، وتطوير النضال والمقاومة ضد الاحتلال وإعادة الدور الذي لعبه الميثاق الوطني في توحيد الشعب وبلورة هويته وتأكيد رؤيته لدوره في التاريخ. وتتلخص اليات اعادة البناء في القدرة على التعامل الايجابي مع جملة التهديدات المطروحة وتحويلها الى فرص سياسية سانحة ، لاسيما وان جملة من المتغيرات المحيطة باتت تشكل عاملا مساعدا للإقدام على هذه الخطوة التي تشمل المفاصل الاربعة :

اولا ـ على مستوى مفصل الوعي:

1 ـ إعادة تجسير العلاقة بين العامل الوطني الفلسطيني والقومي العربي على أسس ومفاهيم تنسجم مع مجمل المتغيرات الحاصلة في المنطقة. وهذه المسألة ذات شقين:

الأول: فلسطيني يتمثل في ضرورة الخروج من المحورة حول الذات والتركيز على التلاحم المصيري بين القضية الفلسطينية والأمة العربية.

الثاني : ويتمثل في وعي فصائل حركة التحرر العربية لموقع القضية الفلسطينية والتعامل معها على اساس كونها تندرج ضمن برامجهم الوطنية.

2 ـ وعي المتغيرات الحاصلة على المستويين القومي والاقليمي والدولي والمتمثلة في : أولا: على المستوى الدولي: فتح الباب لقيام نظام دولي جديد متعدد الأقطاب والقوى الدولية على أنقاض نظام الأحادية القطبية.ثانيا: على المستوى الإقليمي: تعزيز محور المقاومة والممانعة في خط متصل جغرافيا من لبنان إلى إيران ثالثا : على المستوى العربي: صمود وانتصر سوريا وتوفير الظرف الموضوعي لحالة نهوض قومي ووطني جديد. يمثل التلاحم بين البرنامج الوطني والديمقراطي احد أهم مميزاته.

3 ـ وعي اولويات الصراع في ظل مضي القوى الرجعية للتحالف مع الكيان الصهيوني وسعيها لافتعال التناقض مع ايران وتقديمها كعدو بدل العدو الصهيوني.

4 ـ الحفاظ على هوية القضية الفلسطينية الرئيسة بوصفها حركة تحرر وطني تتخذ مشروعيتها من حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة. وتوظيف السلطة الفلسطينية في هذا الاتجاه وليس العكس.

5 ـ شحذ الوعي بطبيعة الصراع مع العدو الصهيوني بوصفه صراعا رئيسيا يتسم بالتناحر. والعمل الدءوب لمواجهة ثقافة التطبيع وتدعيم قيم وثقافة التحرر الوطني

6 ـ التركيز على المحتوى الوطني التقدمي للجهد التربوي والتنويري إن كان على صعيد التربية والتعليم في المدارس أو في الأوساط الشبابية. خاصة بعد ان بدأت الأفكار الليبرالية المشبعة بقيم الربح والأنانية والمنافسة والفردية في التسلل إلى المناهج التعليمية الفلسطينية.

ثانيا ـ على مستوى مفصل التنظيم:

إعادة بناء الحركة الوطنية الفلسطينية على مستويين: ـ المستوى العام: بناء منظمة التحرير الفلسطينية كأداة جامعة ومنظمة للمشروع الوطني الفلسطيني. وتحديد الأسس الضابطة لتمثيل أي فصيل فلسطيني في هيئات المنظمة التي يجب أن تستند لأوسع مشاركة ديمقراطية شعبية

مقاومة للاحتلال ومعبرة عن الهوية الوطنية على المستوى المجتمعي. ـ المستوى الخاص: أن تتقدم الفصائل نحو إعادة بناء ذاتها وتجديد أطرها وقياداتها.والتأكيد على إنهاء ظاهرة الفصيل ـ المشروع. وايجاد الصيغ الكفيلة بانفتاح الفصيل المغلق على كافة ابناء المجتمع الفلسطيني.

ثالثا ـ على مستوى مفصل الفعل والممارسة :

ان تحديد اشكال النضال والممارسة العملية ليس نتيجة لاختيار عفوي واعتباطي بقدر ارتباطها بطبيعة وخصوصية العدو الذي نواجه والأهداف التي نسعى الى تحقيقها. وهي التي تجعل من الكفاح المسلح شكلا رئيسا وأساسيا للنضال الوطني الفلسطيني، بما يستدعيه ذلك من بناء للذات المؤسساتية على ضوء هذه الحقيقة. كما يستدعي الامر حماية قوة الردع الفلسطينية المتشكلة في قطاع غزة وضرورة العمل من اجل توحيدها من الناحية العملياتية وتعميم المقاومة المسلحة على كامل الارض الفلسطينية.

كما ان التطورات والمتغيرات الحاصلة في المنطقة ارتباطا بهذه النقطة تحديدا تشكل عملا محفزا لذلك ، لاسيما وان المقاومة المسلحة العربية اصبحت حقيقة واقعة (المقاومة اللبنانية ـ المقاومة السورية في الجولان وفي المناطق السورية التي يسيطر عليها قوى الارهاب). يضاف الى ذلك التجربة الرائدة التي تجسدت من خلال العمل المشترك بين الجيش العربي السوري والمقاومة اللبنانية والتي جسرت الهوة بين المقاومة الشعبية والجيوش الرسمية.

ان التركيز على الكفاح المسلح لا يعني بأية حال ادارة الظهر للأشكال النضالية الاخرى مهما كان حجمها، بل يجب ممارستها بفاعلية ووعي وانتباه.

رابعا : على مستوى مفصل الهدف :

التاكيد على حق العودة بوصفه الحلقة المركزية وواسطة العقد بالنسبة لكل الاهداف السياسية المطروحة. وهذا لا ينفي النضال من اجل تحقيق الاهداف الجزئية والثانوية ولكن على اساس توظيف ذلك في سياق خدمة الهدف الرئيس.

الخاتمة :

ان عملية اعادة البناء تطرح تحديا تاريخيا امام الحركة الوطنية الفلسطينية وتشكل امتحانا على قدرتها على التجدد والتطور بالمستوى الذي يسمح لها بان تكون دائما في مستوى تضحيات الشعب الفلسطيني وإصراره على مواصلة نضاله من اجل تجسيد حقوقه الوطنية. كما ان الدعوة لإعادة البناء موجهة في ذات الوقت للمثقفين الملتزمين بقضايا امتهم من اجل الاسهام في تقديم التصورات وطرح الحلول التي تيسر من عملية اعادة البناء وتجعل منها حقيقة مجسدة في ارض الواقع.